+ آباؤنا القدّيسون

البار افرام السرياني

تعيّد الكنيسة المقدسة في الثامن والعشرين من كانون الثاني لتذكار البار افرام السرياني. افرام كلمة سريانية تعني " الخصب " وقد كان البار خصباً بالحياة الروحية والنسك
والفضيلة والإيمان، حتى انه أصبح مثالاً يُقتدي به وشهد له القديسون يوحنا الذهبي الفم وباسيليوس الكبير وغريغوريوس النيصصي.

ولد افرام في بداية القرن الرابع، ربما حوالي سنة ٣٠٣، في نصيبين، شمالي القامشلي، على ضفاف نهر دجلة، من والدين تقيين يعملان في فلاحة الأرض. كانا يعيشان من تعب أيديهما وقد ربَّيا افرام تربية مسيحية وعلّماه قراءة الكتاب المقدس والتأمل فيه. تعرّف في صباه على أسقف نصيبين، يعقوب، فدرّبه أكثر على محبة الفضيلة وزرع في نفسه حب النسك والحياة الروحية.

لم يكن افرام في شبابه مختلفاً في تفكيره عن أترابه، إذ اعتقد بأن العناية الإلهية لا شأن لها في تدبير شؤون البشر والكون، وان الأشياء تسيّرها قوانين الطبيعة، لكن التدبير الإلهي كشف له حقيقة الأمور إذ حدث مرّة انه طارد بقرة ليست له الى إحدى الغابات حيث افترستها الوحوش، و لم يرضَ أن يعوّض على صاحبها. وبعد شهر من الزمن اتفق انه كان في زيارة أحد الرعاة أثناء نومهما أتت الذئاب ليلاً وبدّدت الأغنام، فاتّهمه أصحاب الغنم بالتواطؤ مع الراعي صديقه والسارقين، وأودع السجن لذنب لم يقترفه. حزن جداً لوجوده ظلماً في السجن مع أبرياء آخرين مثله. بعد أسبوع ظهر له ملاك الرب في الحلم فشكا له افرام الظلم اللاحق به فأجابه الملاك انه قد يكون بريئاً من هذه التهمة ولكنه لم يعترف بما اقترفه سابقاً، مشيراً الى حادثة البقرة. عندها وعى افرام ان الله يسهر على كل صغيرة وكبيرة في الكون فتاب وقرّر تحسين حياته.

خرج من السجن الى البرية حيث نسك وصار للتأبين معلّماً. له تُنسب صلاة التوبة التي نردّدها في كل صلاة أيام الصوم الكبير: " أيها الرب وسيّد حياتي، أعتقني من روح البطالة والفضول وحب الرئاسة والكلام البطّال، وأنعم عليّ أنا عبدك الخاطىء بروح العفة واتّضاع الفكر والصبر والمحبة. نعم يا ملكي وإلهي، هَبْ لي أن أعرف ذنوبي وعيوبي وأن لا أدين إخوتي، فإنك مبارك الى الأبد آمين".

تتلمذ في النسك على يد ناسك يدعى يوليانوس الذي أعطاه الإرشادات اللازمة . لم
يهمل افرام أي واحد منها وأيقن أن حياة البرية والنسك تحرّر الراغب فيها من صخب العالم الباطل وتجعله كليم الملائكة عن طريق السكينة وترفع ذهنه الى الرؤي الإلهية. كانت أصوامه كثيرة وتستمر لأيام طويلة دون أن يأكل شيئاً. كان يسهر أكثر الليل مصلّياً دون أن يهمل أعمال النهار المضنية، وكان ينام على الأرض. لم تكن لديه محفظة ولا عصا ولا كيس، و لم يمتلك شيئاً في حياته. كل ما له وزّعه على الفقراء. ازدرى المال والمجد وتطلّع الى

+ آباؤنا القدّيسون

العلويات، كل هذا من منطلق قول السيد ان لا يكتز الإنسان كنوزاً على الأرض: " لا تجعلوا لكم كنوزاً على الأرض" (متى ٦: ١٩).

كان افرام في صباه معروفاً بالغضب ولكنه بنعمة الله صار مواضعاً، صبراً ووديعاً.

وقد قال قبل رقاده: " لم أهن الله في حياتي كلها و لم يصدر عن شفتيّ كلام طائش ولا أسأت مطلقاً لأي من المؤمنين ولا تشاجرت البتة مع أي منهم". كانت لديه موهبة الدموع إذ كان يبكي خطاياه وخطايا العالم إجمع حتى ان القديس غريغوريوس النيصصي كان يقول طبيعي ان البشر ما زالوا أحياء ويتنفسون لأن دموع افرام لا تنقطع (أي بشفاعته). كان يتألم إذا مدحه أحد، تواضع لدرجة انه أوصى الرهبان أن لا يرنّموا ترانيم الجناز في في دفنه وأن لا يكفنوه بسبانٍ فاخرة ولا يحفروا لجسده قبراً، "لأني اتفقت مع الله أن أستريح في مقبرة الغرباء". وعندما طالب به الشعب أسقفاً تظاهر بالجنون وراح يمزق ثيابه الى أن تأكد من انتخاب أسقف آخر.

بعد تسلّم الفرس مدينة نصيبين عام ٣٦٣ انتقل الى مدينة الرها، أي أديسا اليونانية واورفه الحالية، شمال سوريا، الواقعة على مسافة ٢٦٠ كيلومتر غربي نصيبين. حاول الشيطان أن يجرّبه هناك عن طريق إمرأة زانية حاولت الإيقاع به. رفض محاولاتها ولكنه أخيراً وافقها شرط أن يكملا فعل النجاسة في الساحة وسط المدينة. قالت له: أما تخجل من الناس؟ فأجابها: تخجلين من الناس يا شقية ولا تخافين الله الذي يرى ما نعمل في الخفية والعلن ويعاقبنا عقاباً أبدياً شديداً فيما نستسلم نحن لمتع الخطيئة "؟ دخل خوف الله في قلبها وتابت وترهّبت وقيل إنها أرضت الله بسيرة حميدة.

في الرها ألزموه أن يصير شماساً، وصار واعظاً مهماً وكان من معلّمي المدرسة اللاهوتية هناك. برع في تفسير الكتاب المقدس. كتب باللغة السريانية المجلدات الطويلة مفسّراً الكتب وكان كنبع لا ينضب إذ أنعم عليه الرب بعطية الكلمة والأفكار والأسلوب. وكان لا بد لمن سمعه أن يتوب عن خطاياه، حتى أن الأغنياء وزّعوا أموالهم على الفقراء المعوزين نتيجة كلامه. أنشأ مستشفى يحوي ثلاثماية سرير لمعاينة المرضى والفقراء.

تصدّى افرام في كتاباته أيضاً لمختلف الهرطقات التي واجهت الكنيسة والتي أنكرت الوهة الآب والروح القدس.

سنة ٣٧٣ ضرب الطاعون المنطقة، فتفانى في الخدمة الى أن سقط شهيد الواجب. رقد بسلام وهو يصلّي بصمت فيما كان الكثيرون خارج الباب يبكون عليه. تصوّره الأيقونات طويل القامة، محدوباً من ثقل الأيام، عذباً، جميل الطلعة، ذا عينين سابحتين بالدموع وفي نظرته وهيئته سمات القداسة. فبشفاعته اللهم ارحمنا وخلصنا آمين.